إيلي كنعان: كلام اللون في الفسحة البيضاء

ثلاثون عاماً بدأت مع معرض كوتوريه

السفير 04/05/1983

تدخل إلى الصالة الفسيحة (غاليري بخعازي - الأشرفية)، تطل الألوان الصاخبة والشفافة.. تقترب من كل لوحة، خطوة خطوة تتفحص أنفاس لمسات اللون في اللوحات الحاملة عصب إيقاع التكوين التجريدي - الغنائي.. وتتذكر تداعيات من حلقات المعارض السابقة التي أقامها الفنان إيلي كنعان.. إنه الهاجس اللوني ذاته.. البصمة ذاتها.

تعود وتتجول خطوة خطوة في الحلقة ذاتها.. تستوقفك لوحة.. تلتفت أحياناً إلى الوراء تتأمل إشعاعات التكوين من اللوحة البعيدة المعلقة على الجدار المقابل.. تجلس على المقعد الدائري تتأملها لفترة غير قصيرة.. تتذكر خلالها بعض التفاصيل الحميمة والعبارات التي رددها الفنان كنعان وهو يستقبلك بتواضع ومودة ولطف وإبتسامة محببة.

تشعر بنوع من الإرتياح أثناء تأملك الطويل لبريق اللون الأزرق المتدرج نحو الأخضر والمتغلغل في نسيج اللوحة كنغم شعري مريح.

تعود وتتجول من جديد، إنما هذه المرة، لتتأمل طويلاً بعض اللوحات التي أعجبتك، والتي أقنعتك أن المعرض متملص من رتابة المعارض المألوفة ويحمل بعض الإشارات الجديدة في فن إيلي كنعان، الذي يعتبر واحداً من رواد الحداثة التشكيلية الثانية في فنون بيروت.

ويزداد شعورك بالتعامل مع المعرض كفسحة حوار.. تقترب من الفنان، تواجهه بمجموعة أسئلة حول مسيرة اللون، ثم تقف متيقظاً لتسجيل الأجوبة التي تدفقت من ذاكرة الفنان.

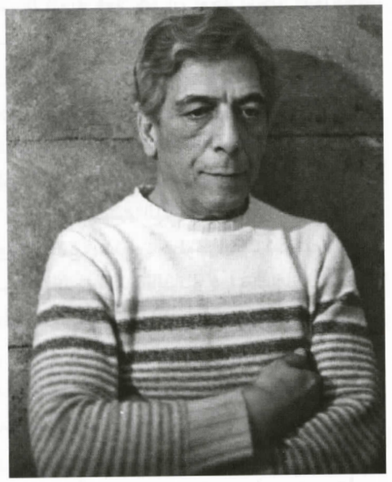

لوحة تجريد منبثق من الطبيعة (المرفأ)

بعفوية، يقول: «اللون هو كل شيء.. هو خيال العين والروح والشعر والطقس الذي يعكس الحياة.. اللون موجود منذ البدايات في لوحاتي.. إنما كان «معوكرا» منذ ثلاثين عاماً وأصبح صافياً مع تتابع التجارب».

وتشعر بلمعة إنفعال تضيء مع حماس إستعادته لذكريات رحلة اللون في فن الأربعينيات: «لم يكن اللون صارخاً في نتاج الفنانين الرواد.. إنما كان على وتيرة واحدة.. كنت أشعر في مرحلة الدراسة والتأسيس بنوع من الضياع ومن التشتت اللوني.. إلى أن أطل معرض جماعي لفنانين فرنسيين نظمه تاجر لوحات يدعى كوتوريه في العام 1948 في صالة مدرسة الآداب العليا - طريق الشام.. وأذكر مدى تأثير هذا المعرض على تحولاتي اللونية والفنية.. ربما لأنني شعرت منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها إلى قاعة المعرض بجاذبية اللون وبالعطر الذي يفوح من لمسات الفنون الفرنسية الوافدة.. وإنتابني شعور بأن اللون يصفعني ويوقظني على حقيقة جديدة، حقيقة إلتماس شرارة اللون والنور الذي يتفجر من زوايا بسيطة.. ورجعت إلى المحترف، لأتعاطى الرسم بطريقة جديدة متأثرة بهذا الخيط اللوني، الذي بدأ يظهر في لوحاتي كهاجس إيقاعي يوحد المساحات اللونية بعفوية».

ويضيف كنعان مسترسلاً في الحديث عن البدايات: «المعرض الذي نظمه كوتوريه، كان الأول الحامل تأثيرات إيجابية مغايرة على نتاج الفن المحلي.. ربما لأن المعارض كانت «شبه نادرة» خارج إطار المحترف.

وإن البداية الفعلية لتنظيم المعارض ضمن «غاليري» إنطلقت من واجهة دكان في منطقة الزيتونة، مخصص لبيع الأسطوانات الموسيقية، كان إسمه «صوت صاحبه»(His Master's Voice)، وكان يديره شخص من ال عودة ومن ثم أداره ادمون سعد، الذي بدأ يعرض للفنانين اللبنانيين منذ العام 1947. كان يعرض في الواجهة الزجاجية بعض اللوحات إلى جانب القطع الموسيقية ويعلق في الداخل مجموعة أخرى. هذا الدكان الموسيقي يمكن إعتباره الغاليري الأول في انطلاقة الفن اللبناني».

وحول أجواء معارضه الأولى يقول كنعان: «أذكر أن أول معرض منفرد أقمته كان في العام 1950 في صالة مدرسة الآداب العليا.. وإن مجمل ألواني في هذه المرحلة كانت متأثرة بأجواء ألوان معرض التاجر كوتوريه. ومن ثم تملصت بعدها من هذه الأجواء لأمر في مرحلة رمادية، ظهرت أثناء وبعد مرحلة الدراسة في باريس، ومن ثم تحررت نهائياً وإنطلقت في رحاب مناخ الألوان الشرق أوسطية».

وعن مدى تأثير الفن الفرنسي على التشكيل اللبناني يقول: «كثيراً ما ترددون أن جورج سير ترك أثره على الفن اللبناني. وأعتقد أن هذا الفنان الفرنسي عندما وصل إلى بيروت في الثلاثينيات لم يكن هناك ملامح نهضة فنية محلية، وإنما كان هناك ظاهرة رواج لوحات الوجوه والطبيعة الصامتة في المساحة الفنية الضيقة التي لا تتعدى إطار المحترفات القليلة وبيوت الفنانين.. وأعتبر أن جورج سير ساهم بدور إيجابي بفتح المجال أمام بوادر ظهور لوحات تشكيلية مغايرة.. إنما لم يؤثر على أحد، وربما كان تأثيره محدوداً في إطار ترويج الفن إجتماعياً، عن طريق تشجيع المعارض. لأنه حتى في العام 1950 لم يكن هناك معارض فردية تذكر.. وأعتقد أن النهضة الفنية الحديثة بدأت جدياً مع ظهور جيل الأكاديمية اللبنانية.. وأذكر اليوم الذي إصطحبني فيه الفنان قيصر الجميل إلى الأكاديمية اللبنانية وعرفني على مانيتي وشفيق عبود ونقولا النمار.. أعتقد أن الإنطلاقة اللونية الحديثة كانت من هنا، لأنه بعد فترة قصيرة تأسس صالون معرض الخريف في قصر الأونسكو وبدأت بعدها الحركة الفنية اللبنانية تتفاعل وتتصاعد وتتنوع في سنوات متعاقبة».

ويتوقف شريط الذكريات مع إطلالات الزائرين، ويعتذر الفنان عن المتابعة تاركاً في الفسحة البيضاء كلماته الأخيرة في الحديث عن اللون: «لم أتغير، منذ أكثر من ثلاثين عاماً وأنا أسير على الخط ذاته. النغمة ذاتها، اللمسة ذاتها، أنا لا أغير إمضائي. والمهم في معرضي الحالي هو المحافظة على روح التجدد المنفتح على ألوان الحياة والذات».